المشرق

نابغة السريان

القديس افرام الملفان

لله الشكر والحمد لقد تحقّقت امانينا التي طالما وطّدنا الامل في الحصول عليها. انبأتنا اخبار رومية بانّ القديس افرام السرياني الملقّب في الكنائس الشرقيّة بصنّاجة الروح القدس قد اقيم على منارة الكنيسة جمعاء فنظمهُ الحبر الاعظم بندكتوس الخامس عشر في عداد معلّمي البيعة واعلن بهِ ملفاناً تكرمهُ الكنيسة الكاثوليكيّة في كلّ الانحاء بهذه الصفة وتقيم لذكرهِ عيدًا كأعياد الحائزين على تلك الرتبة

وقد زاد شرف القديس بـأنّ بطاركة الشرق الاجلّاء من موارنة وسريان وملكيين وكلدان وارمن اغتنموا فرصة وجودهم في عاصمة الكثلكة ليرفعوا الى مقام قداسة ابي المؤمنين عريضةً التمسوا فيها بان يُعلن رسميًّا مار افرام السرياني كملفان للكنيسة الجامعة الغربيّة والشرقيّة

فوقع طلبهم لدى الحبر الرومانيّ احسن موقع ورأى قداستهُ في تلبية دعوتهم نهزةً جديدة لبيان انعطافهِ نحو الطوائف الشرقيّة. ومن ثمّ تقدّم الى مجمع الطقوس والى بعض العلماء الاختصاصيين بان يفحصوا اعمال القديس افرام فحصاً مدقّقاً ويتحقّقوا انطباقها تماماً مع تعاليم الكنيسة واهليّتها لتُجعَل دستوراً يرجع اليهِ المؤمنون في عقائد الدين وقاعدة الآداب. فقاموا بهذه المهمّة القيام الحسن بحيث تمكّن رئيس الكنيسة بالمناداة به رسميًّا كملفان ومعلّم للبيعة الكاثوليكيّة كلّها وامر بان تفرز لهُ الكنيسة اللاتينيّة طقساً خصوصيًّا في ٢٧ تموز المنصرم

فلم نرَ بدًّا من تسطير مقالة في المشرق نجمع فيها الخواصّ المميّزة لذلك الملفان

العظيم الذي استقت من موارده العذبة كنائس الشرق على اختلاف طوائفه وكانت تعاليمه كافية لأن تنكب بالكنائس السريانيَّة — لو ثبتت على اتباعها — عن سبيل الضلال . وعليه سنبيّن تباعاً على وجه الاختصار صفات القديس افرام كرجل ثم كسيحي وناسك ثم كمجاهد ثم كملفان واخيراً كشاعر .

١ الرجل

قد اجمع علماء التاريخ الكنسي على انَّ القرن الرابع الميلاد كان من ازهى واشرف قرون النصرانيَّة . فيه خرجت بيعة الله ظافرة من جور قياصرة رومة وعتوهم قاهرة لشوكة المتعصبين محطمة لسيوفهم . سحقت برجلها الاصنام المالكة على كل انحاء المعمور منذ الوفٍ من السنين فثلَّت عرشها ورفعت راية ابن الله وصليبه المنير فسارت في ظلّه الى فتح العالم الوثني لتربحه للانجيل وتمنحهُ بحرّية ابناء الله

نعم انَّ الكنيسة وجدت في طريقها اعداء جدداً اعني شيع المراطقة وبدع الملحدين بيد انَّ ذلك اجداها قوَّةً وزادها كمالاً اذ بددت بتعاليمها الخلاصيَّة غياهب تلك النحل وكشفت ظلماتها الكثيفة فبدا نورها الساطع ولاح حسنها الرائع

كان ذلك العصر زمن نوابغ الرجال وكبار الاحبار وارباب العلوم الكنسيَّة شرقاً وغرباً فتاهيك باسمائهم دلالةً على عظم مقامهم . فمن يا ترى يجهل فضل القديسين امبروسيوس واوغسطينوس وايرونيموس في الغرب والقديسين اثناسيوس الاسكندري ويوحنا فم الذهب وباسيليوس القيصري وغريغوريوس النازيزي في الشرق فانَّ تآليفهم الباقية الى يومنا تنطق بسموّ فضلهم وتشهد لكنيسة المسيح بالسباق في حلبة العارم وميدان الآداب

ففي ذلك العهد وبين هؤلاء الفطاحل ظهر افرام السرياني فجاراهم فضلاً وعلماً وشرّف شرقنا العزيز بما خلّفهُ معهم من جميل المآثر

ولد القديس افرام في اوائل القرن الرابع في مدينة نصيبين احدى حواضر بلاد ما بين النهرين في ذلك العهد . وقد جاء في ترجمة حياته المطبوعة في الموصل سنة ١٨٨٣ انَّ اباهُ كان كاهناً للاصنام في مدينته يسدن اصنم يدعى ابنيل . وذلك يخالف ما اوردهُ عنهُ مترجمو حياته ولا سيَّما ما رواهُ القديس عن نفسهِ في ميمر توبته الى الرهبان

حيث سرد بعض اعمال حياته فيقول (Acta Sanctorum , IV,60) : « قد هذّبني آبائي بالمسيح . علّمني والديّ خوف الربّ . . . قد اعترف اهلي بالمسيح في المحاكم . تربطني مع الشهداء روابط الدم » . فقولهُ هذا ينفي وثنيّة والده

والارجح انّ اهلهُ كانوا اغنى بالايمان منهم بغنى العالم وحطامهِ . وقد دعاهُ ابواهُ باسم افرام ومعناهُ بالسريانيّة الوافر والغزير والمثمر . جاء في احدى تراجمهِ القديمة (AS, IV,74) انّ والديهِ عند مولدهِ نظرا في الرؤيا جفنةً ذات اثمار لذيذة كانت تمتدُّ اغصانها وتتوفّر عناقيدها فيُقبل اليها عدد لا يُحصى من طالبي جناها . فسمّاهُ لذلك بافرام

ولعلّ عمادهُ تأخر الى سني شبوبيّتهِ فكان ذلك سبباً لاستلامهِ الى بعض اهواء الشباب فانّهُ في ميمرهِ المذكور يروي بالتأسّف ما فرط منهُ من الذنوب في حقّ نفسهِ وحقّ القريب لا سيّما جنايتهُ التي بكاها طول حياتهِ اذ ساق بقرةً لاحد الفقراء فتاهت في البراري ثم افترستها الذئاب فحصل بذلك ضرر لصاحبها فسمح الله وفاء عن ذنبهِ هذا ان يُنسَب اليهِ جرم آخر كان هو بريئاً منهُ فحُبس ايّاماً طوالاً وكاد يذوق بسببهِ مرارة السياط بل الحكم بالإعدام لولا انّ الله نجّاهُ برؤيا ملاكٍ حرّضهُ على التقى واعمال البرّ . وعرف من رفقتهِ الذين وجدهم في السجن انهم مثلهُ رُموا بتُهَم باطلة مع اقترافهم ذنوباً سابقة لم يُحاكموا عليها . فاستنتج من ذلك انّ الله ربّما انتقم من المجرمين فيحكم عليهم القضاة زوراً لاجل آثام لم يجترحوها تكفيراً عن آثام اخرى مجهولة عند الناس ثابتة لدى الربّ

لكنّ هذه الشوائب التي اعترف بها القديس افرام علانيةً امام تلامذتهِ لم تكدْ تبلغ الكبائر وقد حملهُ على اشهارها تواضعهُ جرياً على قول الكتاب (امثال ١٨ : ١٧) : « الصدّيق هو الاوّل في اشتكاء نفسهِ »

وما نعلمهُ من بقيّة حياتهِ العالميّة انهُ خرج من تلك المحنة عازماً العزم الثابت على ان ينزع عنهُ الرجل العتيق « ويلبس الربّ يسوع » (رومة ١٣ : ١٤) . وقد صرّح في حكاية احوالهِ انّ المعموديّة التي اصطبغ بها حينئذٍ طهّرتهُ من كل اوزار حياتهِ وظهر منذ ذاك متّصفاً بكل الصفات الحسنة والمناقب الجليلة متزّهاً عن أشر الشباب مبغضاً لأباطيل العالم دمث الاخلاق وديع النفس ساعياً في خير القريب متفانياً في خدمتهِ ،

حتّى انهُ في بعض السنين اذ علم ما اصاب مواطنيهِ من الضنك بسبب المجاعة غادر منسكهُ وجاء الرها يستعطي من اهل الثروة ليسدّ عوز البائسين فنجاهم من مخالب الموت

امّا صورتهُ الجسديّة فانّ بعض الاقدمين قد وصفها بقولهِ : « كان افرام طويل القامة ذا وجه صبيح وصورة جميلة تلوح عليهِ في كلّ حركاته سمات الوداعة واللطف وانما يظهر في عينيهِ وعلى جبهتهِ اثر الاسف والحزن لما يُلحق بالبشر من اكدار العالم »

وفي صورتهِ التي رسمناها هنا عن اثر قديم ترى وسامة وجههِ وجمال سحنتهِ ذات الوقار والورع . وقد عرَضهُ ذاك الجمال غير مرّة الى وقاحة البغايا لكنهُ دافع بشهامة عن عفّتهِ كيوسف الحسن بل ربح الى الله بحربهِ

بلغ القديس افرام شيخوخة صالحة فمات فيما يُظنّ في ١٨ حزيران سنة ٣٧٣م . وعدّ الرهاويون موتهُ رزءاً وطنيّاً فدفنوهُ باكرام عظيم ولا يزال قبرهُ في احدى كنائسهم مزاراً يتبرّك بهِ الجمهور

٢ المسيحي والناسك

ما كاد افرام يدرك شرور العالم حتّى فرّ الى الله وانقطع الى خدمتهِ . وكان وقتئذٍ القديس يعقوب اسقفاً على نصيبين فالتجأ اليهِ افرام وطلب منهُ ان يقبلهُ بصفة شمّاسٍ فخدمهُ خدمةً نصوحاً ولمّا عُقد سنة ٣٢٥ المجمع المسكونيّ الاوّل في مدينة نيقية استدعى الاسقف شمّاسهُ ليسير في رفقتهِ فصحبهُ فعرف افرام هناك ما صارت اليهِ كنيسة المسيح من العزّ والرونق وزاد استمساكاً بالايمان المستقيم واطّلع على خبث آريوس وانصارهِ فاستنكف من كلّ اهل البدع

ولمّا عاد افرام الى وطنهِ اراد ان يزهد في الدنيا ويعيش عيشة النسّاك فلحق بجبل قريب من نصيبين حيث كان انقطع الى الله احد الحبساء فتتلمذ لهُ واخذ عنهُ الطريقة النسكيّة مستحرّاً بالصلاة قامعاً لشهوات الجسد بالصوم والسهر والشغل ممارساً للطاعة التامّة والفقر الانجيليّ الكامل كما اوصى بهِ الرب (متى ١٠ : ٩) مجارياً في جسدهِ للعفّة الملائكيّة حتّى كانت طهارة روحهِ الباطنة تزين صورة شكلهِ الظاهر . وصرف خصوصاً همّتهُ الى قمع حدّة طباعهِ فاصبح من ألين الناس خلقاً .

وكذلك اذ رأى نفسهُ مائلة الى الزهو والكبرياء لم يزل يقلُّ شباتها ويذللها فبلغ بهِ تواضعهُ الى ان عدَّ نفسهُ من اذلّ خلائق الله فكان يقضي الايام باكياً على ذنوبهِ واذا اثنى عليهِ احد كان ذلك الثناء لديهِ كإهانة عظيمة وعار شديد يصيبهُ عند سماعهِ احمرارُ الخجل وقلق الضمير فتنهمل الدموع السخينة من عيونه

قضى افرام عدَّة سنين في العزلة يتفرَّغ لاعمال النسك ومناجاة الله ولم يعد الى نصيبين الَّا لما رأى سنة ٣٥٠ اهل وطنهِ يتهدَّدهم لمرَّة ثالثة سابور ملك العجم وعدوّ النصارى الالدّ سائرًا لفتح مدينتهم بخيلهِ ورَجلهِ فأراد افرام ان يشاركهم في ضيقهم ويبعث فيهم روح الحميَّة والحماس للدفاع عن وطنهم . فارتدَّ سابور خائباً بعد ان حاصر المدينة سبعين يوماً ودفع على اسوارها مياه نهرها دون ان يقوى عليها . ومما يُخبَر انَّ صلاة القديس افرام ودعوة اسقف المدينة (١ على المدرّ جابتا عليه جيوشاً من البعوض والذباب فاضطرّ ان يكفّ عن الحصار فرارًا من اذاها ويعود الى بلادهِ مغبوناً

ثمَّ انتقل القديس افرام من نصيبين الى مدينة الرها واجتمع ببعض شيوخ نسَّاكها المعتزلين في ضواحي تلك الحاضرة الشهيرة وضارعهم زمناً في زهدهم وعيشتهم الشظفة الى ان دعاهُ الله الى ما هو افضل لمجدهِ تعالى وخير الكنيسة فلبَّى دعوتهُ لكنَّهُ عاش في الرها بين تراكم الاشغال عيشة الزهَّاد فتتلمذ لهُ عدَّة رجال جحدوا العالم على مثالهِ وأولعوا بالحياة النسكيَّة ولهم وضع تلك الميامر العجيبة المعدودة بالمئات في سائر المواضيع الروحيَّة ولا سيَّما التوبة والموت والدينونة والصوم والصلاة . وقد انشدهم افرام عند موتهِ وُصاتهُ الاخيرة يحضُّهم فيها على الثبات في البرّ واعمال النسك منهم ابراهيم وآبا وسمعان ومارا وزينوبيوس وبحضورهم انتقل الى الله كيعقوب بين ابنائهِ اسباط اسرائيل

والشائع عند جمهور الكتبة انَّ القديس افرام لم يَرْقَ في الدرجات الكنسيَّة فوق درجة الشمَّاس الانجيليّ وقد ورد في صدر معظم اناشيدهِ هذا العنوان «قال افرام السوريّ الشمَّاس» . وكذا ورد ايضاً في بعض تراجم حياتهِ القديمة . على انَّ في هذا الامر نظرًا ولا تخلو الشواهد على انهُ صار كاهناً . لنا على ذلك شهادة احد المعاصرين القديس امفيلوكيوس الذي سطَّر ترجمة حياة القديس باسيليوس احد اقمار

(١ لبس الاسقف المذكور القديس يعقوب الذي كان توفي سنة ٣٣٨ بل المدعو فولوجيز

الكنيسة اليونانيَّة الثالثة وكان امفيلوكيوس من اصدقائهِ ففي الترجمة المذكورة يخبر عن سفر القديس افرام الى مدينة القيصريَّة ليشاهد اسقفها القديس باسيليوس ويحظى بمواجهتهِ . فسرَّ باسيليوس بنظر افرام اي سرور واطرأ امام شعبهِ حكمتهُ وقداستهُ العجيبة ثمَّ لم يزل يلحُّ عليهِ حتى اضطرَّهُ الى قبول سرّ الكهنوت من يدهِ على انَّ القديس افرام كتم الامر تواضعاً عن مواطنيهِ لمَّا رجع الى الرها ولم يكشف الامر لاحد بل بقي في رتبة الشمامسة الى آخر حياتهِ . وقد جاء مثل ذلك في سنكسار الملك باسيليوس حيث يصرَّح بكهنوت القديس افرام بوضع ايدي القديس باسيليوس . ومثلهما احد مؤرخي القرن الثاني عشر في كتاب المرطقات يذكر ردود « القديس افرام الكاهن » على بدعة السَّابيين . وغير هؤلاء ايضاً احدث عهداً ذكرهم البولنديُّون (AS.IV.53) مع ترجيح الامر دون القطع بهِ

ومما يؤيد نوعاً هذا الرأي ما رواهُ المؤرخ سوزومان القريب من عهد القديس افرام (ك ٣ ف ١٥) ان سكَّان الرها لمَّا مات اسقفهم تألبوا عليهِ ليقيموهُ اسقفاً على مدينتهم لولا انَّ القديس تظاهر بالخبل واختلال العقل ثمَّ فرَّ الى البريَّة وبقي مختفياً ريثما يتمُّ انتخاب اسقف جديد فعرفوا انَّ جنونهُ حكمةٌ سماويَّة . فاجماع الرهاويين على انتخاب القديس افرام الى الاسقفيَّة يقرب الى الظنّ رسامتهُ كاهناً والله اعلم

٣ مؤلفاته الكنيسة

لا مراء في انَّ القديس افرام عُدَّ منذ وفاتهِ بل قبلها معلماً سامياً في الكنيسة السريانيَّة حتَّى تشبَّهُ بنبيّ السريان وبشمس الأمَّة السريانيَّة وعمود كنيستها . ثمَّ انَّ تآليفهُ لم تنحصر بين الناطقين باللغة السريانيَّة بل اسرع المترجمون فنقلوها الى اللغات الشائعة في الكنيسة الكاثوليكيَّة كاليونانيَّة واللاتينيَّة والقبطيَّة والارمنيَّة والكرجيَّة وفيها كلها ميامر وعظات وانانيد قد ضاع من بعضها اصلها السريانيّ . وهذا لعمري شرف عظيم قلَّما امتاز بهِ غيرهُ من علماء الكنيسة . ولنا في اقوال القدماء عن اعمال القديس افرام ما يدلُّ على اعتبارهم لها وتفضيلها على كثير غيرها كالقديس ايرونيموس والقديس يوحنا فم الذهب والقديس باسيليوس والقديس غريغوريوس النيصصي وتاودوريطس اسقف قورش وسوزومان المؤرخ . وقد بلغ

ثناؤهم على كتاباته الى تأثيرهم لها على تآليف حكماء اليونان قال القديس غريغوريوس: « انك لو نقلتَ ما كتبهُ مشاهير اليونان الى لغة اخرى لفقد رونقهُ ويبس لسابهُ بخلاف مصنَّفات القديس افرام فانها لا تفقد محاسنها في اي لغة كانت ». وافضلُ من هذا ما كتبهُ عنهُ القديس ايرونيموس قال: « افرام شمَّاس كنيسة الرها ألَّف في السريانيَّة عددًا وافرًا من التآليف. وقد بلغ صيتهُ في بعض الكنائس الى انَّها تتلو علانيةً مياسرهُ بعد تلاوة نبوَّات الكتاب المقدَّس وكتابات الرسل. وقد قرأتُ لهُ كتاباً في الروح القدس منقولاً الى اليونانيَّة فعرفتُ من الترجمة ما يتضمَّنهُ الاصل من القوَّة وسموّ المعاني»

امَّا العلوم التي أتقنها القديس افرام فهي خصوصاً العلوم الدينيَّة لم يَفُتهُ منها شيء اخذها في نصيبين عن استاذهِ الكبير القديس يعقوب اسقفها الشهير بتآليفهِ ثم اتَّسع فيها بدرسهِ الخاصّ للاسفار الالهيَّة حتَّى بلغ منها مبلغاً لم يبلغهُ الَّا القليلون فقضوا منهُ العجب بل نسبوا علمهُ الى الروح القدس الذي كان يوحي اليهِ بالعلم السماويّ. وقد اخبر عنهُ القديس غريغوريوس انَّ رجلًا من الاولياء رأى ملائكةً هبطوا من السماء وبايديهم مصحفٌ جليل يحتوي باطناً وظاهراً ابلغ المعاني وابدع الحكم واذ سُئلوا الى اي من كبار ذلك العصر يسلّمون الكتاب اجابوا انهُ موسل من الله الى عبدهِ افرام. فلما استلمهُ انطلق بهِ لسانهُ واضحى فريد عصرهِ في العلوم الدينيَّة

ومع تعمُّق القديس افرام بالعلوم النصرانيَّة لم يهمل العلوم الدنيويَّة لاسيَّما البلاغة والبيان كما يظهر من تآليفهِ الجمَّة فانهُ يسحر ألباب القرَّاء بألفاظها الرائقة ومعانيها الفائقة ونفَسها الشعري. وكذلك الفلسفة درَسها وعرف اسرارها وهذا ما سوَّل لهُ الردّ على اضاليل مبتدعي زمانهِ. والحقّ يقال انَّ اقوالهُ تتدفَّق كالعيون المتفجّرة والانهار الزاخرة يتغنَّنُ فيها كيفما شاء. وهو في كلّ ذلك لا يحيد عن تعاليم الكنيسة ذرَّةً تراهُ يصف اسرارها واغمض معتقداتها وَصْف ادقّ اللاهوتيين وارباب علم الكلام بحيث تُتَّخذ اقوالهُ حجَّةً لتأييد عقائد الكنيسة الرومانيَّة كرئاسة الحبر الاعظم على الكنيسة جمعاء وانبثاق الروح القدس من الآب والابن ووجود المطهر وحبل العذراء مريم بلا دنس وحقيقة القربان المقدَّس وغير ذلك ممَّا جمعهُ بعض العلماء من مياسرهِ بياناً لانطباق كلامهِ على معتقدات الكنيسة

ومما اهّلهُ لرتبة الملفان على الكنيسة كلّها تفاسيرهُ للكتب المقدّسة شرحها شرحاً دقيقاً جمع فيهِ بين معانيها اللفظيّة والمعنويّة والادبيّة والروحيّة نُشر بالطبع كثيرٌ منها وانما فُقد بعضها لسوء الحظ

وأما فحص الاختصاصيّون مؤخّرًا بامر قداسة البابا بندكتوس الخامس عشر كلّ هذه الكتابات الافرامية اعلنوا بصوت واحد انّ كاتبها يستحقّ ان يُعتبر ليس فقط كعالم لاحدى الكنائس بل كمرشد وملفان الكنيسة كلها فصدّق البابا على حكمهم

وهذه لعمري نعمةٌ لم تمنحها الكنيسة الّا لقليل من ابنائها تحت شروط معلومة الخطر ثالثة : (١ ١ قداسة حياة الشخص المنعم عليهِ بذلك ٢ ٠ سمو علومهِ التي امتاز بها فأضحى نورًا ساطعاً يُستضاء بهِ في امور الدين دون ان يكون شذّ في شيء من تعاليم الدين الجوهريّة ٠ ٣ الاعلان بهذه الرتبة بحكم رسميّ من الكنيسة

٤ المجاهد

قال القديس بولس في رسالتهِ الاولى لاهل كورنتس (١١ : ١٩) : « لا بُدَّ من البدَع فيما بينكم ليظهرَ فيكم المزكّون » ٠ فهذه الآية قد تمّت فعلًا في كلّ قرون الكنيسة ليُعرَف بها ابناء الله الحقيقيّون من الكفرة والملحدين ٠ على انّ هذه البدع

(١ دونك اسماء معلّمي الكنيسة وملافنتها وهم الآن اثنان وعشرون فقط : عُرف منهم في اجيال الكنيسة الاولى اربعة شرقيّين وهم القدّيسون اثناسيوس الاسكندري وباسيليوس القيصري وغريغوريوس النازينزي ويوحنّا فم الذهب الانطاكي . واربعة غربيّين وهم القدّيسون امبروسيوس الميلاني ويرونيموس واوغسطينوس اسقف ايبونة وغريغوريوس الكبير بابا رومية . ثمّ أُضيف اليهم بحكم الاحبار الرومانيين القديس توما الاكويني (بحكم القديس بيوس الخامس سنة ١٥٦٨) ثمّ القديس بوناونتورا السارونيمي (بحكم سكستوس الخامس ١٥٨٨) ثم القديس انسلموس اسقف كنتربوري (بحكم اقليمنضس الحادي عشر سنة ١٧٢٠) ثم القديس بطرس خريسولوغوس اسقف راڤنّا (بحكم بندكتوس الثالث عشر ١٧٢٩) ثمّ القديس بطرس داميانوس (بحكم لاون الثاني عشر ١٨٢٨) ثمّ القديس برنردوس (بحكم بيوس الثامن سنة ١٨٣٠) ثمّ القديس ايلاريوس اسقف پواتيه (بحكم بيوس التاسع ١٨٥١) وبحكمهِ ايضاً القديسان الفونسيوس ليغوري وفرنسيس دي سال اسقف جنيفة (١٨٧١) . ثمّ كيرلّس الاسكندري وكيرلّس الاورشليمي ويوحنّا الدمشقي بحكم البابا لاون الثالث عشر (١٨٨٣) وبحكمهِ سنة ١٨٩٩ القديس بيدا المكرم . وكلّ هؤلاء اساقفة او كهنة . فان صحّ كون القديس افرام كان شمّاساً فيكون هو وحدهُ ادنى الجميع رتبةً

لم تظهر في عهد آخر ظهورها في القرن الرابع بوفرتها وعُرتها وبطر القائلين بها فعمّت كنائس الشرق وكادت تنفث فيها سمّها القتّال . وانما كان السبب في ذلك ان المتنصرين بارتدادهم عن الوثنيّة لم يستأصلوا من قلوبهم كلّ جذورها الفاسدة . لكنّ الله لم يهمل كنيسته واقام حينئذٍ اولئك المآمين الكبار الذين أصلوا الهرطقات حرباً عواناً فقنّدوا اضاليلها وقطعوا بسيف البرهان مزاعيمها الباطلة

وقد توفّرت اذ ذاك هذه البدع في كنائس ما بين النهرين حتى اربت على العشرين بدعة فمنها ما كان من بقايا الأدريين ولا سيّما مرقيون ومانى وبرديصان وحرمون ابنه ومنها ما كان حديث النشأة كبدعة آريوس التي انتشرت انتشاراً عظيما في انحاء الشرق وبدعة ابوليناريوس وسابليوس واونوميوس وپولوناس وأرندراس والمسّالين والبوليين وعَبدة الحيّات وغيرهم وخصوصاً اليهود اعداء النصرانيّة . فاذ رآهم القديس افرام وعلم ما يبثّونه من التعاليم الكاذبة والآداب الفاسدة تصدّى لهم وكتب تلك المداريش العجيبة التي احاطت القماط عن خزعبلاتهم وحذّرت جمهور المؤمنين من فساد آرائهم وسوء آدابهم اذ فندهم تفنيدا لطيفاً تارة بالبرهان القاطع وتارة بالمجاز والتعريض وحينا بالتهكّم وطوراً بالالتفات والمفاوضة بحيث تنفذ ادلّتهُ في قلوب السامعين نفوذ السهام الراشقة وتخطف الاذهان كخطف الشهب البارقة بينما هو يمزج كلامهُ بالعواطف اللينة والادعية الحارّة الى الله واستدعاء الخاطئ الى التوبة والضالّ الى حظيرة الايمان وحجر الكنيسة

وكأنّ القديس سبق ونظر ما سينشأ في الكنيسة من البدع الجديدة فتسارع الى تقويض اركانها . فكم من الاضاليل البروتستانيّة ومزاعم كلوين ولوناروس تجد سفسطتها مستأصلة بأقوال ملفان الكنيسة منذ من السنين قبل بروزها

وقد بلغ عدد مداريش القديس افرام ضد الهرطقات ٥٦ مدراشاً نشرها بالطبع الاب بطرس مبارك اليسوعي في الجزء الثاني من اعمال القديس افرام بالسريانيّة واللاتينيّة (ص ٤٣٧ — ٥٥٩) ترى في كلّ منها ذلك الملفان يرصد اعقاب الهراطقة ويصف كلًّا منهم وصفاً حقيقاً بهِ فيقبّح تعاليمهُ ويكشف خبثهُ ومآثمهُ فلا يدع له مناصاً لينجو من رشق نباله . وقد در القديس يوحنّا فم الذهب حيث كتب في مديح القديس افرام : « انّ هذا الرجل العظيم يمتاز في كتاباته بما من شأنهِ ان يضرم النفوس

الفاترة العليلة ويُنهض همّة المكروبين ويرشد الفتّاك في طريقة الكمال ويدفع الخطأة الى التوبة ويُفحم البدع بسهامه الصائبة.

٥ الشاعر

قليلون هم ملافنة الكنيسة الذين امتازوا بالكتابة نثرًا ونظماً معاً لا نعرف منهم في الكنيسة اليونانيّة غير القديس غريغوريوس النزينزي وفي الكنيسة اللاتينيّة القديس برنردوس . امّا القديس افرام فانهُ كان مطبوعاً على الشعر حتى بلغ شعرهُ تسعة اعشار مجموع كتاباتهِ . قال المؤرخ سوزومان انّ منظوماتهِ بلغت ثلثمائة الف (tricies centenas myriades) وهو لعمري عدد لا يُحتمَل تصديقهُ ومع ما فيه من الغلوّ لا بُدَّ من القول انّهُ بلغ في ذلك ما لم يبلغهُ غيرهُ فانّ ما بقي من قصائدهِ يستغرق عدّة مجلّدات

والشعر السرياني القديم من نوع الزجليّات والموشحات ينقسم الى ادوار يشتمل كلّ دورٍ منها ابياتاً معلومة لكلّ بيت عددٌ محدَّد من التفاعيل . وهم يميزون بين الميامر والمداريش والسوغيثات لكل منها ادوارها الخاصّة تختلف طولاً وعدداً في التفاعيل والاوزان يلزمها الشاعر على موجب الانغام وفنون الغناء دون التقفية غالباً . هذا قبل تطوّر الشعر السرياني الذي التزم فيهِ الشعراء بعد ذلك العهد التقفية وجروا على فنون العرب

وكان اوّل من قصّد القصائد عند السريان الشاعر الرهاوي برديصان اقتدى في وضعها بالشعر اليوناني وكان هو تربّى على آداب اليونان في القرن الثاني للمسيح فنظّم الشعر السرياني على مثال معلّميهِ فراج بين اهل وطنهِ ايّ رواج وقام بعدهُ حرمون ابنهُ وجرى على منوالهِ فكان الرهاويون يتغنّون باناشيدهما ويعلّمونها اولادهم . لكنّ برديصان وحرمون كانا من ذوي البدع فأدخلا في منظوماتهما اضاليل تعليمهما . فلمّا اراد القديس افرام مناهضتهما لم يرَ بُدًّا من درس الفنون الشعريّة التي جريا عليها فأتقنها واخذ ينظم بموجبها وكان بليغ اللسان ذا عارضة غريبة يقول الشعر بديهاً ويرتجلهُ دون عناء . فألّف عدداً لا يُحصى من الاناشيد التي فنّد فيها مزاعم برديصان وحرمون وغيرهما من المبتدعين ثمّ علّمها ابناء وطنهِ فشاعت بينهم حتّى نسوا اناشيد الهراطقة واعتصموا بحبل الايمان المتين

ثم انتشرت اغاني افرام وتسابيحهُ ومنظوماتهُ التي وضعها في كل اسرار الديانة المسيحيَّة ومواسمها واعيادها بالكلام المنسجم والتشابيه البديعة والمعاني المبتكرة فتهافتت اليها الكنائس السريانية وتغنت بها في فرائضها الدينية ورتبتها الكنسيَّة وقسمٌ كبير منها لا يزال حتَّى يومنا هذا من جملة الصلوات التي يتلوها الرهبان والاكليريس عند السريان والكلدان والموارنة . وجاء بعد القديس افرام القديس يعقوب السروجي وبالاي وغيرهما واضافا اليها شيئاً من منظوماتهما مقتفين آثار القديس افرام الذي انشأ في الرها مدرسةً لتهذيب الاحداث وتربية الشبيبة خرج منها عدَّة شعراء نسجوا على منواله . والعجب انَّ رقَّة شعره ومحاسن نظمه تُرى حتَّى في اللغات التي نُقلت اليها تآليفهُ . كما شهد على ذلك فوطيوس زعيم الكنيسة الاورثدكسيَّة الذي اطلع في مكتبتهِ الشهيرة اعمال القديس افرام ووجد في كلامه مع قوَّة البرهان ودقة المعاني حسن البيان والنظار الصائب في انتقاء الالفاظ والصور الرائعة والتشابيه البديعة رغماً عمَّا يُفقدها النقل عن اصلها السرياني

وكان في فكرنا ان نروي هنا امثلةً من اقاويل القديس افرام ليعرف القرَّاء فضل ذلك النابغة الذي عُدَّ في زمانهِ بكنَّارة الروح القدس اولا انَّ ضيق المقام يضطرنا الى الوقوف عند حدنا هذه المرَّة مؤجلين لجني تلك الزهور العطرة والدرر الثمينة الى فرصة اخرى ان شاء الله (١) . وفي الختام نشكرهُ تعالى على ما منَّ بهِ بتمجيد عبدهِ القديس افرام الذي اتاح لنا الربّ في اواخر ايلول من السنة ١٩١٥ ان نتبرَّك بزيارة قبرهِ عند مرورنا في الرها . ونتمنَّى ان وضع هذا السراج المنير على منارة الكنيسة الكاثوليكيَّة ينعش في قلوب اهل الشرق الرغبة في درس تآليفهِ والاقتداء بسموّ فضائلهِ ويردَّ من تخلَّف منهم عن جادَّة الصواب كاليعاقبة والنساطرة الى حجر الكنيسة الكاثوليكيَّة التي كان القديس افرام ابنها الامين الى آخر نفس من حياتهِ

---

(١) راجع ما كتبناهُ سابقاً في احد اثاره اعني مقالاتهِ في البتوليَّة التي نشرها غبطة البطريرك اغناطيوس افرام الثاني الرحماني (المشرق ١٠ [١٩٠٧] : ٢٣-٣٠)